

المحاضرة رقم (10): المنهج الإثنوغرافي... المحددات والأسس

الأهداف التدريسية:

- ✓ تلقين الطالب أساسيات المنهج الإثنوغرافي.
- ✓ تعريف الطالب بالأدوات العلمية المستخدمة في المنهج الإثنوغرافي.
- ✓ تكوين الطالب منهجيا بحيث يمكن له تطبيق المنهج على الظواهر الاتصالية والإعلامية.

البحث الإثنوغرافي:

تتصف البحوث الإثنوغرافية بأنها بحوث كيفية، يتم اللجوء إليها في سبيل الحصول على فهم معمق ومفصل للأسباب والمعتقدات والدوافع، ووصف شمولي للظاهرة المبحوثة، كما تهدف أيضا على فهم لماذا وكيف وما التأثيرات والسياقات الخاصة بالمشكلة، وهذا الأمر يتم من خلال الملاحظة بالمشاركة حيث يقوم الباحث بمعايشة حياة المبحوثين ويوميأهم وجمع البيانات وتحليلها¹.

تسعى الإثنوغرافيا للوصول إلى فهم متعمق للطريقة التي يتبعها الأفراد المنتمون إلى ثقافات مختلفة وفرعية في إدراك معنى واقع حياتهم التي يعيشونها، وتعرف الإثنوغرافيا على أنها "الكتابة عن الثقافة" يتم هذا الأمر من خلال الملاحظة والتسجيل والوصف².

وتعرف كذلك على أنها "الدراسة التحليلية للمجموعات الإثنية (العرقية) أي دراسة تلك المجموعات المادية والاجتماعية واللغوية، وملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان ووصف النشاط الثقافي كما يبدو فهي الدراسات الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات وأصناف التراث الخاصة بالأثنيات أي تلك التجمعات الإنسانية التي تمتاز ببنية عائلية واقتصادية واجتماعية متجانسة حيث تقوم الوحدة على لغة وثقافة مشتركة"³.

¹ رزيقة حيزير، المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في علوم الإعلام والاتصال، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، العدد 12، 2018، ص 271.

² خميس حياة، المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في الأبحاث الأنثروبولوجية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 9، العدد 2، 2023، ص 811.

³ مريم دهان، المقاربة الإثنوغرافية، تعريفها، مميزاتها وتقنياتها وعلاقتها بدراسات الجمهور، مجلة تاريخ العلوم، العدد 8، 2017، ص 32.

يعرفها مرسللي واتكنسون بأنه "منهجية بحث اجتماعي يتميز بالانخراط العميق للباحث، حيث أنه يقع بين حدود البحث الكيفي السوسولوجي لمجرد الفهم وبين البحث الإجرائي كون هدفه الفهم والمشاركة في التغيير نحو الأفضل، فمن حيث المنهجية يقتضي البحث الإثنوغرافي قيام الباحث بمعايشة المجتمع موضوع البحث لجمع البيانات كتدوين المشاهدات اليومية أو إجراء مقابلات مع المبحوثين إضافة إلى تحليل الوثائق واليوميات ذات الصلة، حيث أن هذا النوع من الأبحاث يتطلب وقتاً طويلاً"⁴

حاول كل من مرسال موس Marcel Mauss سنة 1926، برونيسلو منيلوفسكي Malinowski 1963، وقريتس كليفوردي Geertz Clifford، وغيرهم فهم الثقافات المتباعدة ثم امتد استعماله مع مدرسة برمنغام البريطانية ليشمل السياقات الحضرية، ومع مدرسة شيكاغو الأمريكية التي استلهمته من ثنايا التفاعلات الرمزية بقيادة جورج هربرت ميد Georges Herbert Mead والتي كان من بين أهدافها، الطبيعة الرمزية في الحياة الاجتماعية⁵.

نشطت الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية بشكل واسع وازدهرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيث لجأت الكثير من الدول الغربية إلى تشجيع هذه الدراسات على الشعوب المستعمرة، والهدف من ذلك هو الحصول على معلومات دقيقة عن الأنظمة السياسية والاجتماعية لتلك الشعوب، لقد برزت الأنثروبولوجية كعلم يساعد في تحقيق أمرين أساسيين هما⁶:

- حل المشكلات الناتجة عن الإدارة المحلية.
- حل مشكلات التغيير الحضاري ومساعدتها على التكيف.

⁴ مريم دهان، مرجع سبق ذكره، ص 32.

⁵ يوسف تمار، إشكالية استخدام المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية الاتصالية، مجلة إسهامات للبحوث والدراسات، المجلد 3، العدد 2، 2018، ص 3.

⁶ خالد خواني، المنهج الأنثروبولوجي وأدواته بين النظري والتطبيق، مجلة الشامل للعلوم التربوية والاجتماعية، المجلد 4، العدد 2، 2021، ص 379

يعرف المنهج الإثنوغرافي بأنه "الدراسة العلمية الميدانية للظواهر الاجتماعية وذلك عن طريق اتصال الباحث بموضوع البحث اتصالا مباشرا ويتم ذلك عن طريق الملاحظة بالمشاركة والمقابلة لجمع المعلومات حول لظاهرة ووصفها وصفا شاملا"⁷.

يعرف أوجبو Ogbu المنهج الإثنوغرافي بأنه أسلوب ميداني يسعى الباحث من خلاله لتعرف على خصائص مجتمع معين ومعتقداتهم وسلوكياتهم عن طريق الملاحظة بالمشاركة"⁸.

يقصد بالمنهج الإثنوغرافي "الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية وذلك عن طريق اتصال الباحث الأنثروبولوجي بموضوع البحث اتصالا مباشرا يعيش فيه بين الجماعات المراد دراستها ويتعلم لغة الأهالي لكي يوثق صلته بهم"⁹

مزايا المنهج الإثنوغرافي:

يتسم البحث الإثنوغرافي بالمزايا التالية¹⁰:

- يهدف البحث الإثنوغرافي إلى فهم السلوك الإنساني.
- يتم في سياقه الطبيعي.
- يقوم على دراسة حالة واحدة لمجتمع صغير أو جماعة معينة.
- يختبر ما يحدث فعليا دون الاعتماد على آراء وفرضيات مسبقة.
- يعتمد على جمع مكثف للبيانات يمتد لفترة زمنية قد تطول.
- استخدام المقابلات العميقة والملاحظة بالمشاركة لجمع البيانات.
- ربط البيانات والوقائع بالمفاهيم واستخلاص النظريات والمعارف من البيانات.

⁷ بلقي فطوم وسيفون باية، الإثنوغرافيا منهج حديث في الفضاء الاتصالي الجديد، ص 41.

⁸ Ogbu, Educational Anthropology-In encyclopedia of cultural anthropology- henry holt and company 1996, p 370

⁹ مباركة رحمان، العوائق الاستيمولوجية في دراسة المجتمعات الافتراضية - المنهج الإثنوغرافي أمودجا، مجلة الحوار الثقافي، المجلد 11، العدد 3، 2023، ص 55.

¹⁰ عدنان محمد أحمد قطيط، الإثنوغرافيا كمنهجية للبحث التربوي الكيفي -دراسة نظرية، المركز القومي لبحوث التربية والتنمية بالقاهرة، مصر، 2021، ص 154.

- ربط النتائج المستمدة من دراسة مجموعات عينة بسياق أكبر.
- يوصف البحث الإثنوغرافي بأنه بحث تفاعلي يتطلب وقتا طويلا للملاحظة والمقابلة وتسجيل المعلومات كما تحدث بشكلها وفي مواقعها الطبيعية.

استخدامات المنهج الإثنوغرافي في علوم الاعلام والاتصال:

سيطرت الأبحاث الكمية على دراسات جمهور وسائل الإعلام والتي همشت في مجملها أهمية المتلقي، ومختلف تفاعلاته واتجاهات فهمه وتأويلاته للمضامين الإعلامية، ولم تقدم التصور العلمي الكافي لتفسير السلوكيات والممارسات الفردية في حد ذاتها، فبرز الاهتمام بالمقاربة الإثنوغرافية في دراسات جمهور وسائل الإعلام مع تطور الدراسات الإعلامية التي تهتم بدراسة تأثير وسائل الإعلام على الجمهور، وتحولت نظرة الباحثين في مجال الإعلام والاتصال للجمهور من السلبية إلى الإيجابية¹¹.

تعتبر النظرة النقدية التي قدمها السوسيولوجي ميشال دوسيرتو بداية القطيعة مع الدراسات الكمية للجمهور وكذلك دراسات تحليل المضمون، والتي اعتبرها سيرج بروكس ظلت غير كافية لأنها توجهت بالأساس إلى معالجة ظاهرة استخدام التلفزيون خارج سياقه الواقعي، وتحليل مضامين الرسائل الإعلامية، ويرى الباحث الكندي أن أعمال دوسيرتو تتلاقى مع أبحاث بلومر فيما يخص الاستعمالات والإشباع التي تصب في الإطار النفسي والوظيفي بعيدا عن البعد النقدي، أما النموذج النقدي المقترح من طرف ميشال دوسيرتو يفتح في المقابل إشكالية المقاومة اليومية ذات الطبيعة الاجتماعية والسياسية مقابل عروض أجهزة التوزيع والاستهلاك¹².

انطلقت أبحاث دافيد مورلي الإثنوغرافية في منتصف الثمانينات حول الاستعمالات الأسرية للتلفزيون، وما طرحه من مفاهيم: سياق المشاهدة، السياق المنزلي، والدينامية العائلية، وهذا مع طرحه لنموذج التفاعل والتأويل، حيث اقترح فكرة وجوب فهم التكنولوجيا كنظام تقني ومادي واجتماعي وثقافي، من خلال الاعتماد على المقاربة الإثنوغرافية لرصد التفاعلات التي تحدث بين أفراد الأسرة في سياق معقد ملئ بالممارسات والنقاشات الجماعية، وبذلك احتل عمل

¹¹ بلقي فطوم وسيفون باية، مرجع سبق ذكره، ص 44.

¹² رزيقة حيزير، مرجع سبق ذكره، ص 278.

Morly المتصل بإثبات الطابع الفاعل للجمهور داخل الدراسات الثقافية قدرا كبيرا من الأهمية، إذ سمح للعديد من الدراسات باتخاذ كمرجعية ومنهجية لأعماله¹³.

ويرى الباحث "اسكينازي" أن البحث الإثنوغرافي يتطلب إمكانيات مادية وبشرية هامة، وهو ما قام به الباحث الأمريكي جيمس لول James Lull والباحث الألماني جيمس روجج James Rogge والفرنسي دومنيك بولي Dominique Bollier والتي أفضت بنتائج معتبرة، إذ حلل الباحث الفرنسي في بحوثه مضامين الماحداثات الشخصية المتعلقة بخصص وبرامج تلفزيونية مختلفة تمت مشاهدتها من قبل الفاعلين، وكانت هذه الماحداثات تتم في أماكن العمل أو الفضاءات العمومية أو البيت واحتل فيها موضوع المسلسلات والبرمجيات التلفزيونية مكانة هامة، تتغذى هذه الماحداثات من معارف المتحدثين ومن تأويلاتهم انطلاقا من سياقات متباينة¹⁴.

ولقد قام الباحث جيمس لول بجمع بحوثه الإثنوغرافية في كتاب موسوم بـ "عالم العائلات: بحث اثنوغرافي حول جمهور التلفزيون" وهو كتاب جاول فيه الباحث رصد مختلف التفاعلات مع مضامين التلفزيون من خلال عرضه في عدة مناطق من العالم، لقدم نتيجة مفاده أن الممارسات التلفزيونية تمثل امتدادا للممارسات الثقافية اليومية وللأجتهات النفسية والسلوكية، وشملت هذه البحوث كلاً من الهند وبريطانيا وفنزويلا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة والصين الشعبية ضمن المناطق الريفية والحضرية¹⁵.

أسئلة للمناقشة:

- ما هي العوائق التي تحول دون تطبيق المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية والاتصالية؟
- حدد الأدوات البحثية التي يمكن تطبيقها في المنهج الإثنوغرافي؟
- ما هي المميزات التي يتفرد بها المنهج الإثنوغرافي في حقل الإعلام والاتصال عن باقي المناهج العلمية؟

¹³ لقي فطوم وسيفون باية، مرجع سبق ذكره، ص 44.

¹⁴ رزيقة حيزير، مرجع سبق ذكره، ص 279.

¹⁵ المرجع نفسه.